

# مُقَدِّمَةٌ

## العالم يتقلَّص والصينُ تنمو

توجدُ الصينُ في كل مكان في هذه الأيام. يُغذيها اقتصاد كبير هو الأسرع نمواً في العالم، ويؤثر في حياتنا، مستهلكين، وموظفين، ومواطنين. وغدَّت عبارة «صُنِعَ في الصين» متداولة في كل العالم، مثل المال: فالبلاد تخطط ثياباً وتصنع أحذيةً وتجمع ألعاباً لأطفال العالم أكثر من أي بلد آخر. أما إذا ارتقينا السُّلَّم التكنولوجي، فإننا نجد الصين قد صارت أكبر مصنع للأجهزة الإلكترونية الاستهلاكية، تضخ في أسواق العالم كمية من أجهزة تلفزيون، وأجهزة دي في دي DVD، وهواتف جواله أكبر من أي بلد آخر. والصين ما تزال ماضية في صُعودٍ وتنتقل بسرعة وكفاءة نحو الصناعات التكنولوجية الحيوية والكومبيوتر. ولم يسبق لأي بلد أن قطع خطوات التنمية الاقتصادية دفعة واحدة بهذه المهارة. وليس ثمة بلد في العالم يتقن اللعبة الاقتصادية أكثر من الصين. ولم يَهْزُ بلدٌ هَرَمَ الاقتصاد العالمي كما هَزَّتْه الصين.

ويُدرِكُ المُتَبَّعُ العادي للأخبار أن ثمة أمراً عظيماً يلوح في أفق الصين. فالبلد يَصْنَعُ قطعاً لطائرات بوينغ 757 ويكتشف الفضاء بصواريخ صنعتها الصين. وفي الصين توجد بين 100 إلى 160 مدينة جاوز عدد سكانها مليون نسمة (بينما لا يتجاوز العدد في أمريكا تسع مدن، وفي أوروبا الشرقية والغربية مجتمعين 36 مدينة). وتشترى الصين الآن حقول النّفْط في أنحاء العالم، وتُوقِّع اتفاقيات شاملة لتوريد النّفْط والغاز مع شركات سعودية وروسية. وتشترى الصين (خردة) حديد العالم، وكميات هائلة من الفولاذ، لتحوّلها إلى منتجات تباع في مختلف أصقاع العالم. ويُعدُّ البلدُ نَفْسَه بِدأبٍ دون كَلِّ ولا تَوَقُّفٍ لمستوى أعلى

من التصنيع. ويصنِّدُ أجهزة كومبيوتر تحمل علامات تجارية صينية. وتشهد الصين اليوم تدفقاً هائلاً لرؤوس الأموال الصناعية. فهناك يستثمر العالم ماله. وتمتد الصين أسلاك الألياف الضوئية [في شبكة اتصالاتها] سِراعاً. وقد عمَّلت الصين بعزْمٍ وشدة معاناة إلى حد بعيد لكي تتخطى وتقفز من الاقتصاد الزراعي إلى دولة صناعية متقدمة في ظل ماو تسي تونج Mao Zedong، وهي الآن تقفز فوق كثير من تكنولوجيات الدول الصناعية الناضجة. فنظامها الهاتفي لاسلكي في معظمه وبعضه فقط سلكي، وكثير من مدنها الكبرى ستتعلم قريباً بأعظم أنظمة النقل السريع تطوراً في العالم. وإليك هاتين المقارنتين، وكلاهما واقع حقاً: تشرب الصين الحليب هذه الأيام. وإن أطول لاعب وسط في رابطة كرة السلة، ياو مينج Yao Ming، صيني.

لقد كان صعباً، فيما مضى من الأيام، إطعام ذلك العدد الهائل من سكان الصين وتشغيلهم. أما الآن، فلا بد من النظر إلى خمس البشر [سكان الصين] نظرة جديدة مختلفة: فهم أكبر سوق عرفه العالم، وزبائن سيتي بانك Citibank، وديزني Disney، ونوكيا Nokia، وجي إي GE [جنرال إلكتريك]، ومايكروسوفت Microsoft. وكأنهم الجزء الرئيس الحاسم في النظام القادم.

وإنك وإن لم تكن ممن يقرؤون الصفحات الاقتصادية، ستري أثر الطفرة الاقتصادية الصينية يضربُ بكل السُّبُل الظاهرة والخفية التي يمكن أن نشهدها في واقعنا اليومي:

● إنك إن أبديت اهتماماً بالصين لصديق من أصدقائك القدامى يملك مصنعاً للعدد الصناعية تجده يقر بأن مصنعه، الذي أسسه أبوه فأعطى حياة هنيئة لثلاثة أجيال من أسرته وقدم أجوراً جيدة لمئات العمال، «يقتله أولئك الأشخاص [في الصين]».

● وإن تحدثت مع سبَّاك العائلة، تجده يشكو من قضاء يومه في استبدال قطع صينية مكسورة، ثم يخرج من حقيبته قطعة غيار صينية ويقول إنها أفضل،

ويضيف خجلاً: «لقد صاروا الآن أحسن حالاً، وهذا ما يمكننا أن نحصل عليه اليوم دون أن ننفق كثيراً من المال».

● وإن صادفت أمَّ أحد زملاء ابنتك في المدرسة الثانوية، وكنت تلقاها في السنوات الماضية في حفلات أيام العطل حيث تعزف ابنتك على آلة الفيولا. فقد هاجرت الأم إلى الولايات المتحدة من الصين سنة 1995م لتدرس الفيزياء الساكنة، وهي الآن باحثة في كلية طب محلية. تقول: إنها عائدة إلى الصين لتتابع هناك تجارة لصديق يعمل على تطوير برامج لألات تصوير بالرنين المغناطيسي MRI وسواها من أجهزة طبية عالية التكنولوجيا. وإن سألتها عن أبحاثها في المستشفى؟ تقول: إن الفرص اليوم في الصين أعظم من أن تُفوّت، ولا تريد أن تندم فيما بعد.

● وإن ذكرت هذه القصة لصديق آخر، باحث له شهرة عالمية ويدرس حياة الخلايا، فسوف يقول لك إن أقسام البرامج الحيوية في الجامعات الأمريكية تعمل الآن، في جوهرها، لتنتقل المعرفة من شيوخ اليهود إلى نساء الصين الشابات.

● وإن عبرت الشارع إلى مخزن يفتح طوال الليل تملكه أسرة من المهاجرين الفلسطينيين، فتجد وراء النُضد، حيث كانت تعرض السجائر، عشرات القطع المتممة لأجهزة الهاتف الجوال بِسِمَاتٍ تجاريةٍ مختلفة - من بطاريات، ومآخذ للسيارة، وسماعات، وعلب - ليس فيها ما يتجاوز ثمنه 12 دولاراً. وترى الإقبال على الشراء منها كبيراً، كما يقول موظف الصندوق.

● وإن لقيت أحد أصدقاء المدرسة الثانوية المتميزين الذي كان يستعمل نظارة طبية سميكة، تجد أنفه لا تعلوه نظارة الآن. ويُدرّس الآن اللغة الإنجليزية في مدرسة كبيرة لتعليم اللغات في شنغهاي، وقد عاد إلى الوطن يتباهى بنتيجة العملية الجراحية التي أجريت لعينه بالليزر لقاء 600 دولار في عيادة صينية حديثة جداً، وهذا عشر ما يكلفه إجراؤها في أمريكا.

● وإن تناولت طعام الإفطار في مطعم صغير في سانت جوزيف بميتشجان St. Joseph, Michigan. تجد حَوْلَ إحدى الطاولات أربعة رجال، تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والستين. وتجدهم يرتدون ثياباً مثل لباس عمال المصانع، غير أنهم يجلسون في العاشرة صباحاً معاً يناقشون أمر صرف عمال من الخدمة في مصنع محلي لصنع أقراص المكابح لشركة بوش Bosch الألمانية العملاقة لصنع قطع غيار السيارات التي تزيد من طاقات إنتاجها في الصين. تقول الشركة: إنها تستغني عن ألوف العاملين في مصانعها في جميع أرجاء الولاية كي تبقى قدرتها على المنافسة. ويأسف الرجال لعدم توفر فرص عمل كثيرة فيها. كانت وِرْلِبول Whirlpool وكلاارك للمعدات Clark Equipment وسواهما من مصانع أخرى راسخة وناشطة في المنطقة، غير أنها أقفلت مصانعها الآن، فصارت هياكل فارغة لما كانت عليه من قبل.

● وإن رأيت متاجر أرماني إمبريوم Armani empeorium في فيا مَنْتزوني Via Manzoni في ميلانو، عاصمة الأزياء الإيطالية، وراجعت قائمة فروعها في جميع أرجاء العالم تجد فيها شنغهاي.

● وإن قصدت أحد المطاعم الصغيرة المعتمدة في حي صيني [في أمريكا] تجد في الزاوية شاباً صينياً، قصيراً، وسميناً، وقوياً، لَوَحَّته الشمس، يبدو حائراً كما لو أنه جاء ليعمل في فترة ازدهار السكك الحديدية الأمريكية قبل قرن مضى. تجده يَسْتَتِد إلى صرة كبيرة، لُفَّت بلفافة بلاستيكية وِرْبُطت بشريط من السلوفان، ربما تحوي كل ما يملكه في هذه الدنيا. إنه مهاجر من ملايين المهاجرين الصينيين القرويين المكتومين الذين وجدوا طريقهم -ربما بمساعدة أحد المهريين - بعيداً عن مرافئ الصين التي كانت مزدهرة في الماضي. وسيُنافِس الآن للعمل في أدنى درجات الاقتصاد المحلي الأمريكي.

● ويُريك أحدُ المقاولين منزلَ زبونة جَدَّدَت الحَمَّامَ الرئيس في منزلها . فاستبدَّل لها سطح نضد قديم من الفورمايكا برخام أزرق داكن ذي حافة مشطوفة مزخرفة كتلك التي تراها في مُنْتَجَع في منطقة البندقية [في إيطاليا] . سوف يرى عينيك تَتَّسَعان فَيُنصَحك أن تَفْعَلَ ما فَعَلْتَ ، قائلاً : إنه رخام إيطالي ، وإنه باهظ الثمن ، غير أنه يَسْتَحِق الثَمَنَ المطلوب . وبعد أن تحتج على ثمنه الباهظ ، تذهب معه في شاحنته إلى فناء للخشب . وتجد فيه صناديق ضخمة من الجرانيت المقصوص والمُعَدَّ للمطابخ ، والحمامات ، ورفوف غرف الجلوس . تجدها جميعها مُلَمَّعة ومَصَمَّغة . ويقول لك المقاول : إن رأيت إحدى هذه المسطحات مناسبة لك كما هي ، فإن ثمنها يبلغ 450 دولاراً بدل 8000 . ويقبل عليك صاحب الفناء قائلاً : عليك أن تشتري ما تريد قبل أن تَتَفَدَّ ، فالصناديق هذه لا تبقى في المخزن إلا يوماً أو بعض يوم ، لا تَلَبَث أن تُباع . وقال : إنه يبيع هذه المسطحات منذ سنة ، وإن رجلاً من الصين قد زاره وقال : إن لديه ثلاثة مقاليع يستخرج منها الحجارة ويصقلها . وقد جربها لتكون مناسبة ، لكنه لم يعد يَسْتَطِيع الحصول على ما يكفي منها لتلبية المطلوب .

● وتستيقظ في صباح يوم في سانتا بَرَبِرا في ولاية كاليفورنيا ؛ لتجد السماء كما لو أنها دُهِنَتْ بِدِهَانٍ أبيض لامع . وتقول صحف الصباح إن أشعة الشمس تخادع سحابة غبار حملتها الرياح فوق المحيط الهادي من الصين . تحمل السحابة ذرات التراب من أرض مُرَحَّرَجَة (أزيجت أحرارها) مختلطة بملوثات زرنيفية وصناعية أخرى من مصانع البلاد .

● وعليك شراء سروال ليفي Levy من مخزن وول مارت Wal-Mart ، فهو أقل ثمناً من سروال اشتريته منذ عشرين سنة .

● وتدعوك زميلة في العمل إلى «حفل حافظات نقدية» وتقول إنها صديقة صاحبة الحفل ، وهي مضييفة في شركة يوناييتد للطيران United Airlines .

لقد زُيِّتْ شقتها بمصاييح ورقية ووسائد حريرية، وكُدِّسَتْ فيها حقائب يدوية صنع لوي فيتون Louis Vuitton، وبرادا Prada، ومعاطف بُرْبِري Burberry، وسترات من فِراء صنع نورث فيس North Face، ومعاطف جلدية قصيرة صنع تمبرلاند Timberland، ومنتجات رالف لورين Ralph Lauren، وأوشحة شانيل Chanel. وتجد على طاولتها حقيبة تلمع فيها ساعات رولكس Rolex وبلجاري Bulgari، وكارتييه Cartier. وتقول لك «خذ زجاجة كولا من الثلجة. انظر فيما حولك. وقدم عرضاً للشراء. فكّر في الأسعار الرخيصة فهذه كلها نماذج مقلدة [مُقرَّصنة]. اخرج وفي يدك نورث فيس North Face بـ 20 دولاراً وساعة جديدة بـ 35 دولاراً. لقد ضاعفت مالها. إنك لن تقع عينك على اسم المصمم بالنظرة التي كنت تنظرها من قبل.

- وادخل بسيارتك الهوندا سيفيك Honda Civic محطة وقود. عندما يكون ثمن الجالون 2.30 دولاراً فإن ملء خزان الوقود سيكلفك 30 دولاراً.
- واذهب بسيارتك عبر هاوٲن Houghton في ولاية ميتشجان وهي بلدة نائية في أعالي شبه الجزيرة البارد من الولاية. توقف عند مكتبة الطلاب في كلية ميتشجان التكنولوجية. سوف تجد على طاولة المؤلفين المحليين كتاب Being a Graduate Student in the U.S. ألفه اثنان من التلاميذ الصينيين في الجامعة. ويقول موظف الصندوق إن الكتاب يحقق مبيعات جيدة في الصين. واستوقف أي طالب آسيوي في حرم الجامعة واسأله: كيف سمع بكلية ميتشجان التكنولوجية؟. سيقول لك: إن لجامعته في بيجنج علاقة قوية بالكلية وإن أساتذته حدثوه عنها. وإن سألته إن كان يحب الدراسة هناك؟ فيقول: إن ميتشجان باردة، وإن الطعام رديء، وإنه وجد صعوبة في التكيف مع الآخرين إلا مع الطلاب الصينيين، وعددهم 140 طالباً. غير أن التعليم التكنولوجي فيها ممتاز.

- وتوقف عند مخزن يبيع حوائج السيارات لشراء سائل تنظيف زجاج السيارة الأمامي. ستجد نصف المخزن قد تحول إلى معرض للدراجات النارية (سكوتر scooter) صينية الصنع، بعضها يشبه نصف هارلي [هارلي ديفيدسُن] half-Harleys، وبعضها الآخر يشبه دوكاتيس Ducatis، ومعظمها يكلف أقل من 300 دولار.
- وإذا حضرت عشاءً في منزل خبير يجمع القطع الفنية، تجد على الحائط صوراً طول الواحدة منها 120 سم لأطلال مدينة صينية. وينصح صاحب البيت بالاستثمار في الفن الصيني المعاصر، فإن الاهتمام به يزداد اليوم في العالم، وما إن يبدأ الصينيون أنفسهم بالشراء حتى ترتفع الأسعار ارتفاعاً هائلاً.
- وارجل إلى باريس لتشاهد معالمها المشهورة وتجوّل في الشانزليزيه Champs-Elysees، الشارع الذي يحافظ الفرنسيون على هويته الوطنية بغيرة شديدة. غير أن «أجمل شارع في العالم» يستسلم أول مرة في تاريخه لحدث ثقافي غير فرنسي، إنه استعراض صيني يضم سبعة آلاف موسيقي، ومهراج، وراقص تيني يرتدون لباسهم التقليدي. وقد أُنير في تلك الليلة برج إيفل Eiffel Tower بالألوان الحمراء وملأت الألعاب النارية السماء احتفالاً بالسنة القمرية الصينية الجديدة. وتأتي تلك الاحتفالات في وقت ينتقد الفرنسيون انتقاداً حاداً حلفاءهم الغربيين، والولايات المتحدة وبريطانية العظمى. ويصادف الاحتفال زيارة قادة سياسيين صينيين لفرنسا لتوقيع اتفاقيات إستراتيجية واقتصادية واسعة.
- وقَرّر أخيراً أن تتخلى عن كاميرا للتصوير بالفلم قديمة واغطس في مجال التصوير الرقمي digital photography. فمحلات التصوير تبدي اهتماماً كبيراً بالآلة صغيرة من صنع نيكون Nikon، هي معجزة هندسية تستطيع أن تصور بسرعة وتسجل مشاهد واضحة لأماكن ضعيفة الإنارة،

فهذه الكاميرا تحبب أفضل منافسيها من كاميرات الفيلم، وتكلف نصف ما تكلفه الآلات المشابهة قبل سنة. يثق الزبائن المخلصون لنكون Nikon بجودة منتجاتها وتصميمها المبتكر. فهي إحدى العلامات التجارية اليابانية التي أسهمت في بناء سمعة ذلك البلد في التفوق الصناعي. إن الإمساك بالكاميرا، والتقاط بضعة صور تجريبية، يؤكد أنها منتج جديد من الطراز الأول لا ينتجه سوى اليابانيين. تَفَحَّص الكاميرا بدقة، فإنك تجد عبارة «صنع في الصين» مكتوبة عليها بحروف صغيرة. ويكشف البحث على شبكة الإنترنت أن الكاميرات الرقمية التي تنتجها كثير من الشركات اليابانية، والأمريكية، والكورية تصنع في المصانع الصينية نفسها.

• وإذا زرت عمك المريض العائد لتوّه من برنامج إعادة تأهيل إثر نوبة أخرى، ولم يزل عاجزاً عن الحركة دون مساعدة، فسوف يُعَرِّفك على ميناردو Menardo المشرف الصحي الذي أرسلته وكالة التمريض. وميناردو هذا يرتدي ثياباً لائقة، ويتألق في تصفيف شعره. سوف يقول لك في المقابلة الأولى إنه من الفلبين وأنه يعمل في التمريض منذ أربعة أشهر. ويشاطر أخته العيش هنا في أمريكا في شقة تبعد ساعة بالسيارة، ويملك بيتاً كبيراً في وطنه وكان لديه خدم. ويُخْرَج من حقيبته منشوراً دعائياً عن عمله السابق، إنه مصنع في جزيرة سبو Cebu Island يوظف خمسين عاملاً يصنعون حقائب من القش والخيش (الجوت). ويقول إنه فقد عمله لأن المصانع الصينية تصنع الآن حقائب مماثلة بسعر أقل مما يرى ميناردو أنها تُكَلِّفه. إنها أشغال يدوية، وقد كان عماله يتقاضون 30 دولاراً في الأسبوع. ويتذمر من أن العمال الصينيين يتقاضون ثلث ذلك المبلغ ويعملون ساعات أطول. وهو الآن يفرغ مباول المرضى. ويأمل أن يستطيع البدء بعمل جديد بما يجنيه من أجره الأمريكي، غير أنه يرى التغلب على الصينيين في الأسعار صعباً.

إن الاقتصاد الصيني المعجزة يستطيع أن يأتيك من طرق شتى، ومن كل حذب وصوب. وما إن تصبح الصين تحت مرمى البصر، حتى يَصْعُبُ ألا تراها تملأ المكان.

### قوة العمل العملاقة

إن وراء صعود الصين الاقتصادي السريع في السنوات الخمس والعشرين الماضية حقيقة أساسية هي تعداد السكان الهائل. فالأعداد تطفئ في حجمها على جميع أوجه الحياة في البلاد تقريباً. حيث تُؤوي الصين قرابة 1.5 بليون نسمة، وهذا يجعل تعداد السكان الرسمي البالغ 1.3 بليون نسمة أقل من الحقيقي بما يقرب من عدد سكان ألمانيا، وفرنسا، والمملكة المتحدة مجتمعين. وإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى، نجد أن عدد الصينيين غير المحسوبين، لو أنهم كانوا في بلد منفصل، لكانوا البلد الخامس في تعداد السكان في العالم.

وإن الأمر الذي يلفت الانتباه هو أن الصين لا تُؤوي أخص قوة عمل في العالم. وإن كان أجر العامل الصيني خمساً وعشرين سنتاً في الساعة، فإنه يكلف أكثر مما يكلفه العامل في أفقر بلدان جنوب شرق آسيا أو إفريقية. ففي الزوايا الأكثر بؤساً في العالم، يحمل الأطفال البنادق ويسيرون عبر حقول الألغام لقاء أجر لا يتجاوز دولاراً واحداً في اليوم. إن الصين هي ورشة العالم، فهي تتربع على جزء مُسْتَقَرٍ نسبياً من أجزاء الكرة الأرضية وتقدم لصناعيي العالم قوة عمل صناعي موثوق بها، وطبيعة، وقادرة، يسوسها نظام تفرضه الحكومة.

وإن الأثر الكبير الآخر الآن هو هجرة مئات الملايين من المزارعين من الريف، بعد أن سمحت الحكومة لهم بالمغادرة. والحقيقة هي أن تَبَنَّى البلد لرأسمال السوق خلال العقدين الماضيين وانتهاء دعم الحكومة للمزارعين يشكلان تحالف قوى تطرد الفلاحين من الأرض، في هجرة هي الأكبر في تاريخ البشرية. وهي أيضاً الأقل دقة في إحصاء عدد الأفراد، حيث يتراوح تقدير عدد الذين غادروا

إلى المدن بحثاً عن عمل بين 90 و 300 مليون، إنها، في أقل التقديرات، تعادل القوى العاملة الكاملة في الولايات المتحدة. وإذا ذهبت إلى أعلى التقديرات، فإنك تجد العدد يتجاوز القوى العاملة الأمريكية والأوروبية مجتمعة. وسيعيش نصف الصينيين بحلول سنة 2010م في مناطق مدينية، يكون بعضهم في حاضرات مدينية يربو عدد سكانها على المليون لم تكن موجودة قبل سنوات.

إن ما تعنيه هذه الأرقام هو أن القوى الإنتاجية لآلة الصناعة ذات الكلفة المنخفضة في الصين، إلى جانب الشهية المنفتحة لمستهلكيها الذين يزيد عددهم على بليون، جعلاً من الشعب الصيني الثروة الطبيعية الأكبر على كوكب الأرض. وإن طرائق استغلال الصينيين والعالم لهذه الموارد هي التي ستحدد شكل اقتصادنا وكل اقتصاد آخر في العالم بالقوة التي كانت للتصنيع والتوسع الأمريكي خلال مئة سنة مضت.

## ما عرفه العمال الأمريكيون

### في مصنع هارلي Harley للدراجات النارية

إن آثار الصين على العالم عظيمة جداً - وربما تكون انفجارية - حتى يصعب على المعنيين بمشاهدة الصورة الكاملة تقدير أبعادها. ذلك، في حدّه الأدنى، كان انطباع العمال والمديرين في مصنع هارلي ديفيدسون Harley-Davidson في ميلووكي Milwaukee عندما قَدِمَ ثلاثة من المسؤولين الاقتصاديين الأعظم أهمية في إدارة بوش في أواخر صيف 2003م. وصلت وزيرة العمل الأمريكية إلين تشاو Elaine Chao ووزير الخزانة جون سن John Snow، ووزير الاقتصاد دونالد إيفنس Donald Evans بالحافلة ليعلموا عن انقلاب في الاقتصاد بناءً على ماضي إحدى شركات التصميم الأمريكية. وافترضوا أن مصنعي «هوج Hog» للسترات الجلدية، المتفردين الذين ينتجون أكبر دراجة نارية أمريكية، سيرقصون على نعمات الإدارة التي تدعي مناصرة العمل.

غير أن الجميع لزم الفتور. فقد كانت هناك جبهة باردة تعصف من الصين. لقد فقدت الولايات المتحدة 2.9 مليون فرصة عمل صناعي خلال خمس سنين خَلَتْ. فَفَقَدَتْ وَسُكُنْسِنِ Wisconsin تسعين ألفاً، أو سُدُسُ فرص عملها الصناعية منذ سنة 2000م، وكان ثَمَّةُ رأي قوي لدى الجمع في هارلي بسبب ذلك. فقد كانت الشركات التي كَبُرُوا معها تتلاشى، بينما تتجه الطلبات وفرص العمل إلى ما وراء البحار. ولم تجد إِلَيْنِ تشاو المرتبكة جواباً، عند ذكر التحدي الصيني، إلا أن تقول إن جنود الحرس الوطني الأمريكي الذين يخدمون في العراق سيجدون فرص عمل مضمونة عند عودتهم. وبدا أن جون سنو لا يُمَيِّزُ بين العملة الصينية يوان Yuan والعملة اليابانية ين Yen. وساد الانفعالُ الجمهورَ الذاهل. فلم تعد الضرائب، ولا عجز الميزانية أو تكاليف الحرب على الإرهاب هي التي تقض مضجع الحياة الاقتصادية، كما يرى الخطباء، وإنما هي الصين. أما المجتمعون، فقد كان التنافس مع الصين هو الذي يُحَدِّدُ إن كانت وَسُكُنْسِنِ قادرة على التمسك بالقاعدة الصناعية التي كافحت لإحيائها.

وانطلق الوزراء في جولتهم في المِدْوَسْتِ (الغرب الأوسط) Midwest إلى عشرات المحطات. وكانت تواجههم طوال الطريق أسئلة غاضبة عن الصين. كانت الجموع تحمل مكبرات صوت يشحنها الغضب. وكان بين الغاضبين عمال ومديرون على حد سواء، من اليمين واليسار. وربما كان أعلاهم صوتاً جمهور الناخبين الجمهوريين، وأصحاب الصناعات الصغيرة الذين يناضلون تحت وطأة قوة الإنتاج النامية لأكبر بلدان العالم سكاناً.

جرت هذه الأحداث قبل ثمانية عشر شهراً من نشر هذا الكتاب. فلم يعد اقتصاد الصين اليوم يأخذ قادة الحكومة على حين غرة. فماذا تراهم فاعلون الآن، بعد أن صاروا يعلمون، هذا ما ننتظر معرفته، وبخاصة أن ردود الفعل الشعبية تجاه الصين تتغير باستمرار - وغالباً على أساس البرامج السياسية والاقتصادية الأمريكية المنافسة. تكون الصين، في لحظة، الخطر الأكبر الذي

يُهدِّدنا، وفي لحظة تالية تصبح صديقاً. إنها تَمَتَّصُ فرص العمل الأمريكية؛ وهي ضرورة لقدرتنا على المنافسة. فالصين في نظر العالم المَصْنَع، وهي أكبر فرصة للسوق. وقوة الصين الصناعية تَسْتَنزِفُ فرص العالم النامي، غير أن اقتصادها الجائع يَشُدُّ البلدان الأفقر إلى أعلى. تصدر الصين الانكماش؛ وتذكي ارتفاع الأسعار. الصين سوق تزدهر؛ وسوف تنفجر.

إن حقيقة الصين، مثل جميع البلدان الكبيرة، هي أن تناقضاتها حقيقة. فليس ثمة جواب سهل في الأفق، وإنما مجرد قوى تغيير عملاقة.

### ماذا تقول الأرقام – وماذا تُخفي؟

ينمو اقتصاد الصين سريعاً بكل المقاييس. فتقارير التقدم الاقتصادي السنوي للدول تقيس النمو بالنتائج المحلي الإجمالي، والقيمة الإجمالية لجميع السلع والخدمات المتداولة ضمن اقتصاد بلدٍ ما. فقد كان الناتج المحلي الإجمالي للصين سنة (2003م) (1.4) تريليون دولار. وكانت الصين، حسب ذلك المقياس، تحتل الموقع السابع في حجمها الاقتصادي في العالم. وما زال اقتصاد الولايات المتحدة الأكبر في العالم، إذ كان الناتج المحلي الإجمالي لها سنة (2003م) (10.1) تريليون دولار، أي سبعة أضعاف حجم اقتصاد الصين. (ويمكن قياس الاقتصاد العالمي بنتاجه المحلي الإجمالي؛ إذ وصل مجموعته إلى 36.4 تريليون دولار سنة 2003م).

وثمة ظروف ملطفة في أرقام اقتصاد الصين. إذ يُشَكُّ في معظم الأرقام الإحصائية الصينية، لما يَتَّصِفُ الصينيون بصفات المراوغة. كان التذمر فيما مضى دائماً من المسؤولين الذين يرفعون أرقامهم ليُوهموا بِحُسْنِ أَدائهم. أما الآن، فتقول جوقة المُرتابين إن الأرقام مُفَرِّطَة في انخفاضها. فمخططو الصين المركزيون لا يفتنون بوجهون أموال التنمية بازياً إلى المناطق التي تُحدِّد بأنها مناطق فقيرة رسمياً. وهكذا، فإن محافظات الشاطئ الشرقي من الصين التي

تجني فوائد جُلّي من مزايا الإصلاح الاقتصادي، تخفي نسب نموها العالية كي لا تذهب عنها موارد الحكومة إلى أماكن أخرى. أما المناطق البائسة فلديها دوافع طبيعية؛ إنهم يجهدون في الحفاظ على تصنيفهم وإن كانت الأعمال تسير في التحسن. وربما كان ذلك سبب عدم تطابق الأرقام التي تجمعها الحكومة المركزية من المقاطعات مع الأرقام التي تقدمها الحكومات المحلية والإقليمية في نشراتها الخاصة. إن اقتصاد الصين أكبر بـ 15 بالمئة، قياساً بالأرقام المحلية. وقد أخرج التفاوت الإحصائي الحكومة المركزية حتى اضطرت إلى محاكمة عشرين ألف مسؤول محلي، بتهمة الاحتيال، كانت لهم يد في تقديم تلك البيانات.

وتتضمن الأرقام الحكومية الاقتصاد الصيني النظامي فقط. أما اقتصادها تحت الأرضي التجارة البعيدة عن الرقابة، الذي يتألف من أعمال تجارية مرفوضة أخلاقياً وأكثر دنيوية تنقصها مباركة الحكومة (والضرائب)، فإنه هائل يصعب إحصاؤه.

وقد يكون تصنيف الصين في الموقع السابع منخفضاً جداً لأن عملة الصين مثبتة بالدولار. وإن عملات العالم الرئيسية الأخرى ترتفع وتتنخفض مقابل الدولار حسب أوضاع السوق. وقد جرت العادة في بلد بقوة الصين أن يرى قيمة عملته الوطنية ترتفع، لكن الصين تستخدم القوة الهائلة لاحتياطياتها من العملات الصعبة لتبقي السعر العالمي لليوان Yuan متماشياً مع الدولار مهما كان سعر السوق. ولو لم يتراجع الدولار أمام اليورو أو أي عملة عالمية أخرى خلال السنوات الأخيرة، لكان موقع الصين أعلى درجة أو درجتين.

ويرى بعض المحللين أن موقع الصين أعلى من ذلك بكثير. ويأخذون في اعتبارهم مقدار ما يشتري الدولار في البلاد فعلاً، وهو أكثر كثيراً مما يشتريه في الولايات المتحدة، وأوروبا، واليابان ومعظم بقاع الأرض الأخرى. وإن بعض السلع - كالآلات اليابانية، والنّفط السعودي، والأزياء الفرنسية، والأدوية السويسرية، وساعة من وقت بروفيسر أمريكي مختص في التسويق - كلها

لها أسعار قياسية عالمية. غير أن العرض والطلب الذي يحكم معظم الاقتصاد الصيني - القوة العاملة، والغذاء، والإيجار، والآجر، والأطبء، والثياب، والألعاب المصنوعة في الصين - يخضع جميعه لموازينها المحلية الخاصة. ويشترى الدولار في الصين ما يشتريه حوالي 4.70 دولار في إنديانابولس Indianapolis. وإن التفاوت الذي يسمى خطأ «تبادل في القوة الشرائية» يسوى في تقدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية لمكانة الصين بين الاقتصاديات العالمية. ويبدو اقتصاد الصين الذي يبلغ 1.4 تريليون دولار، في حسابات وكالة الاستخبارات المركزية CIA، أقرب إلى اقتصاد ناتجه المحلي الإجمالي في حدود 6.6 تريليون دولار. ويمكن القول، بتعبير أصح، إن اقتصاد الصين أقرب إلى ثلثي حجم اقتصاد الولايات المتحدة من سبعة.

وهناك نسبة النمو في الصين، وسرعتها في المستقبل الاقتصادي. إذ تريد الدول أن تضيف قدر ما تستطيع إلى ناتجها المحلي الإجمالي في معظم الحالات. وكان نمو الاقتصاد الصيني كبيراً على مدى خمس وعشرين سنة خلت، حتى أخذ صفات أسطورية لإحدى مزارع ماو Mao النموذجية. وكانت الولايات المتحدة، التي تميل جميع الدول لقياس أنفسها مقارنة بها، تحظى بأقوى نسبة نمو بين الديمقراطيات الصناعية، التي تشكل الدول الصناعية السبع، على مدى سنين طويلة. وإن نمو الولايات المتحدة مرتفع ارتفاعاً مريحاً فوق متوسط عضوية منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية، وعصبة العالم الداخلية التي تتألف من ثلاثين اقتصاد سوق ديمقراطي رائد تغطي مجتمعة ثلثي المردود الاقتصادي العالمي. وقد تراوح نمو الناتج المحلي الإجمالي في الولايات المتحدة حوالي 3.3 بالمئة بين سنتي 1982م و2002م. ويرى سياسيو الولايات المتحدة في السنوات التي حققت نمواً يتجاوز 4 بالمئة سنوات رواج وازدهار عظيم، وفي السنوات التي تتجاوز 2 بالمئة سنوات مريحة، والسنوات التي يكون النمو فيها أقل من ذلك تكون سُمّاً سياسياً. ففي أمريكا اللاتينية التي تُعد منافس الصين

في صناعات منخفضة التكاليف، وفي التقدم الاقتصادي خلال الربع الأخير من القرن العشرين، كانت، وسطياً، أسوأ مما كانت في المنطقة أثناء الكساد الاقتصادي الكبير. أما في الصين، فإن نسبة نمو كتلك التي في الولايات المتحدة تعد كارثة. ويقول المسؤولون الصينيون ينبغي أن ينمو البلد بنسبة تتجاوز 7 بالمائة في السنة لتوفر فرص عمل كافية للذين يدخلون سوق العمل بانتظام.

إن الصين ملتزمة بالنمو الاقتصادي حتى إنك ترى الصينيين يتحدثون كثيراً وكأنهم يستطيعون تحقيق ذلك بإرادتهم. إنه تفاؤل ضروري ذلك الذي يعم الأفكار الصينية الرسمية المتداولة. 1. ويقارن أورفيل شل Orville Schell مؤلف كتاب Virtual Tibet وعميد كلية الصحافة في جامعة بركلي Berkeley في كاليفورنيا، بين وحدة التركيز التي بدأها الصينيون ضد الرأسمالية ثم معها الآن. يقول شل، ثمة استعداد في الحالين لإلغاء المنطق ورؤية مستقبل زاه فحسب. فكلما الحالين يقودان إلى المغالاة. فقد كانت الصين مستعدة، في حاضرها الرأسمالي، للتفاوضي عن الجانب القائم من الحداثة، ورؤية التقدم الاقتصادي حلاً لجميع التحديات التي يواجهها البلد.

ولا يجمع الخبراء الاقتصاديون الصينيون على الثقة بأن مجرد الرغبة في النمو كفيلة بتحقيقه. بل على خلاف ذلك. فقد عمل المخططون الاقتصاديون الصينيون على إلقاء الثلج على آمال مواطنيهم الاقتصادية الكبرى. فهم يعرفون أن الإفراط في الحماسة يؤدي إلى أوهام اقتصادية. غير أن السيطرة على قوة الاقتصاد الصيني الدافقة أمر صعب. وإذا كان للتاريخ أن يتبأ بحاضر الصين إذاً لَانْفَجَرَ اقتصادها منذ زمن بعيد. فإذا انفجرت الفقاعات عند تدافع المستثمرين وراء مشاريع كثيرة ليس لها قيمة اقتصادية حقيقية - إذ إن عدداً كبيراً جداً من المصانع تتسابق نحو أسواق حامية ذاتها، وثمة عدد كبير جداً من مشاريع البناء المحلية تجب تليبيتها، وعدد كبير جداً من القروض المصرفية الرديئة لمشاريع غير سليمة، وعدد هائل من الأسهم المحلقة لشركات لا تاريخ لها

- عندها تستحق الصين أن تُصبح خراباً. وكلما طُرِحَت أسوأ التوقعات لاقتصاد الصين نرأه ينمو سراعاً، ويخلق صناعات أقوى، ويستورد ويصدر المزيد، ويجلب مزيداً من الاستثمارات الأجنبية.

وعندما قررت الصين إصلاح اقتصادها قبل جيل مضى، كانت نسبة النمو الرسمية 9.5 بالمئة. وربما تصعد البلدان سراعاً في مراحل مبكرة من الإصلاح الاقتصادي، وإنما ليس مثل الصين. فالصين مقبلة على مسيرة ثلاثين عاماً يتضاعف اقتصادها خلالها ثلاث مرات. إنه صعود ليس له مثيل في التاريخ الحديث. ولم يقاربه ازدهار اليابان أو كوريا الجنوبية بعد الحرب. وإذا نظرنا إلى نسب النمو الاقتصادي الأخيرة في الولايات المتحدة، نجد أن لا بد للولايات المتحدة من خمس وعشرين سنة لكي تضاعف اقتصادها. ولو أن الولايات المتحدة، التي ازدهرت في الثمانينيات والتسعينيات، نمت بمعدل نمو الصين منذ سنة 1978م، لكان الاقتصاد الأمريكي في حجمه الحالي تقريباً مضافاً إليه اقتصادين اليابانين. ويشير نيكولاس لاردي Nicholas Lardy من معهد الاقتصاد العالمي، إلى أن الصين نمت نمواً قوياً حتى في حال الركود الذي شهده الاقتصاد العالمي في سنتي 2001م و2002م.

وهكذا تجد نموّ الصين يعطيها مكاناً أكبر من حجمها في الاقتصاد العالمي. فالصين ما زالت تصنع جزءاً من عشرين من كل شيء ينتج في العالم، غير أنها تلعب على الساحة الدولية دور مصنع جديد في بلدة صناعية قديمة. إنها تستطيع أن تُتَّفَق، وتستطيع أن تتَمَرَّ على من هم أضعف منها، وتستطيع أن توظف وتحدد الأجور، وتستطيع أن تطرد المنافسين القدامى من أعمالهم. إنها تغير الطرائق التي يعمل بها الجميع.

ويميل الأمريكيون إلى التركيز على التفاوت الهائل في التجارة بين البلدين. إنه قلق ساهم الأمريكيون في خلقه بزيادة شرائهم المستمر من مصانع الصين النشطة. فقد باعت الصين سنة 2004م الولايات المتحدة بضائع تزيد قيمتها

162 بليون دولار عما اشترته منها. وبخلاف الحكمة السائدة، فإن العجز في الميزان التجاري مع الصين لا يعني أن الأمريكيين ينفقون دون الثروة الوطنية بسرعة تفوق ما أنفقت في أي وقت مضى. وهكذا كانت معظم مكاسب الصين مع المشتريين الأمريكيين على حساب البلدان الأخرى التي اعتادت غواية الدولارات الأمريكية، وبخاصة الاقتصاديات الآسيوية الأخرى. ويجني الأمريكيون - والعالم - مزيداً من الحشو في الصفقة. وتكسب الصين لأنها تستطيع أن تصنع ما يصنعه الآخرون بثمن أقل. إنها تُحوّل ما كان مواداً غالية الثمن، كأجهزة أقراص DVD، والأدوات الكهربائية، والسترات الجلدية، إلى مواد نابضة رخيصة الثمن تتادي المشتريين من رفوف المخازن. وإن كثيراً منا يجد بيوتنا تزدهم بأكوام من الألعاب الرخيصة، والإلكترونيات الاستهلاكية، والأدوات، والأحذية، وأجهزة الهاتف، والثياب لا يدركون أن هذه الأشياء ربما أتت إلى أمريكا من بلدان أخرى، وأن سبب هذا الفيض الذي نشهده هو أن الصين قد صارت المصنع الرائد لهذه السلع وتضرب الجميع بأسعارها. فصناعة الثياب في أمريكا، مثلاً، بدأت بالتلاشي زمنياً قبل أن تبدأ الصين تجني الطلبات على حساب المصانع الآسيوية والأمريكية اللاتينية الأخرى.

ولصناعة المفروشات الأمريكية قصة أخرى. فقد استنزفت الصين منفردة معظم قوتها. إنها تبين كيف تستطيع الصين أن تتبع أعمالاً خاصة يتميز بها بلد ما وتُهلك القسّم الأعظم منها في فترة وجيزة. (إنها تأتي الآن على جميع صانعي المفروشات الخشبية في العالم، فتعطي العالم رفوفاً للكتب وخزانات كبيرة يخزن فيها مشترياته الأخرى المصنوعة في الصين). إذ ارتفعت صادرات الصين من غرف النوم الخشبية فقط إلى الولايات المتحدة منذ سنة 2000م حتى سنة 2003م من 360 مليون دولار إلى ما يقرب من 1.2 بليون دولار. وخسرت القوى العاملة الأمريكية التي تعمل في مصانع المفروشات الخشبية خلال بداية التحول الصيني بقدر 840 مليون دولار وخمسة وثلاثين ألف موقع، أو واحد من كل

ثلاثة عمال يعملون في هذه الصناعة الأمريكية. وتصنع الصين الآن 40 بالمائة من جميع المفروشات التي تباع في الولايات المتحدة، وسيزداد هذا الرقم حتماً. وستستمر فرص العمل الأمريكية في المفروشات بالانخفاض.

غير أن إحدى مفارقات نجاح الصين في سوق المفروشات الأمريكية هي أن مصانع الصين قد أتقنت عملها في تسليم المستهلك الأمريكي، وقدمت جوهر التصميمات الأمريكية والأوروبية على نحو أفضل من الورشات الأمريكية. حتى نرى كبار بائعي المفروشات، من مخازن مثل جي سي بني JCPenney إلى المخازن المختصة مثل كرييت آند بارل Crate & Barrel تعرض الآن مفروشات محفورة ومزخرفة بأسعار كانت قبل بضع سنين أسعار نماذج مفروشات «حديثة» أسهل صنعا، تتطلب ساعات عمل أقل.

وأما البلدان الأخرى، فقد صارت الصين لهم ضرورة كزبون ومُؤمِّل. فاليابان وألمانيا تتمتعان الآن بفائض تجاري كبير مع الصين، فالصين أكبر مشتر لآلات المصانع، وتحتاج إلى المعدات التي تصنعها ألمانيا واليابان - أجل - كي تصنع المعدات والأجهزة الإلكترونية التي تصنعها ألمانيا واليابان. وتقلح البلدان الغنية بالموارد إذ تبيع الصين المواد الأولية التي يعاد تشكيلها في مصانعها، والطاقة التي تحتاج إليها لتزودها بالطاقة. فقد اشترت الصين سنة 2003م، بناء على تقدير ستيفن روش Stephen Roach، كبير اقتصاديي مورجان ستانلي Morgan Stanley، 7 بالمائة من نفط العالم، وربع جميع الألمنيوم والفولاذ، وثلاث فلزات حديد العالم وفحمه، و40 بالمائة من إسمنت العالم. ولعل المقبل أعظم.

### الصدمة القادمة

وليس أكثر ما يُرعب من الصين أنها تبلي بلاء حسناً في الإنتاج الصناعي. فلا بأس أن يفقد الأمريكيون تجارة المفروشات أمام الصين. ففي المخطط الأعظم للأموال تعد الطاوات والكراسي أموراً تافهة في الاقتصاد الأمريكي.

ويفقد اليابانيون تجارة أجهزة التلفزيون. ويفقد الإيطاليون تجارة الحرير. ولا يستطيع الألمان المنافسة في زينة عيد الميلاد. وسيفقد الجميع، خلا الصين، مصانع النسيج والثياب. وإن أكثر ما يقلق الأمريكيين وغيرهم من الأمم هو حدّ خط المستقبل، حيث يطفئ تحول التصنيع نحو الصين من كل حذب وصوب، ولا تُستثنى من أولئك الولايات المتحدة. فتجارة البضائع الاستهلاكية تظهر على سطح الاقتصاد العالمي وتسهل متابعة حركتها. غير أن التحول الأكبر، الذي يكتسب زخماً الآن، يقع بين المنتجات التي يتعامل الصناعيون والمنتجون بها فيما بينهم: إنه عدد لا يحصى من المواد التي تكوّن كل ما يُصنّع، سواء أكان ذلك مئات من قطع تدخل في صناعة الغسالات، أو الكومبيوتر، أمّ مئات ألوف القطع في الطائرات. ثم هناك المنتجات الكبيرة كالسيارات، والشاحنات، والطائرات، والسفن، وشبكات تحويل أنظمة مقاسم الهاتف، والمصانع، والغواصات، والأقمار الصناعية، والصواريخ. تسيّر الصين على درب هذه الصناعات أيضاً.

### اتبع المال - إلى الصين

ولعل أحد الأسباب الرئيسية لنمو الصين هو أن العالم يغذي رأسمالها باستمرار. فقد أفاد معهد أبحاث اليابان للاقتصاد والتجارة والصناعة -Japan's Research Institute of Economy, Trade and Industry أن ثلث إنتاج الصين الصناعي قد تحقّق بفضل نصف تريليون دولار من المال الأجنبي الذي تدفق إلى البلاد منذ سنة 1978م. وقد استثمر الأجنبي في تجارة البناء في سنة 2003م أكثر مما أنفقوه في أي مكان آخر في العالم. وكانت الولايات المتحدة تجتذب معظم الأموال الأجنبية فيما مضى، غير أن الصين احتلت موقع الريادة سنة 2003م، فجذبت 53 بليون دولار بينما أخذت أمريكا 40 بليون دولار. وتأتي مع المال المعرفة. ومازال الدور المحفز للأجنبي في البلاد ينمو سراعاً؛ إذ تستقبل الصين في كل يوم نهراً من الأوروبيين، والآسيويين، والأمريكيين الخبراء في الصناعة، والأعمال المصرفية، والكومبيوتر، والإعلان،

والهندسة. وارتفع الاستيراد والتصدير الذي تقوم به شركات أجنبية تعمل في الصين في سنة 2003م حتى زاد 40 بالمئة. وتسيطر شركات أجنبية الآن على أكثر من نصف تجارة الصين، يستورد كثير منها سلعاً تدخل البلاد يصنعونها للتصدير. وقد نفخت الشركات الأجنبية حجم التجارة الصينية حتى صارت الصين ثالث بلد في التجارة العالمية، بعد الولايات المتحدة وألمانيا، وتتقدم الآن على اليابان.

وإن الحكومات التي تحاول أن تحمي موقع صناعاتها لتحمي حِرْفِيِّهَا يجب أن تواجه الصين بما لديها من قوى عاملة غير عادية. فهل لعشرات الألوف من صناع القماش والمفروشات أهمية تذكر عندما تستطيع الصين أن تجمد الأدوية الأمريكية، ومعدات الاتصالات، وبضائع المزارع، أو أي صنف من أصناف المنتجات الضخمة التي تأمل الولايات المتحدة أن تصدرها؟ وثمة بلاد أضعف يداً. فمعظم بلدان العالم تنظر الآن إلى نمو الصين كألة حساسة لنموها الاقتصادي. وإن إلقاء نظرة على الأخبار في أي يوم في البرازيل، وأستراليا، وكندا، والمكسيك، وألمانيا، واليابان وأي مكان آخر في العالم تبيّن عن موازنة يومية عالمية تبقى الصين راضية لكونها عميلاً، وعلى كفاءة جيدة كمورد، وبعيدة كمنافس.

### أوامر من جبار

وبعد أن بدأت الصين نهجها الرأسمالي، تباينت الآراء في إمكان نجاحها واحتمالاته. وإن التقييمات السائدة الآن هي خليط متفجر من الغبطة، والخوف، والإعجاب، والسخرية. ويمتطي هذا الشعور موجات كبيرة من رأس المال، وخطط إستراتيجية لأعمال كبيرة وصغيرة، وحسابات سياسية هي الأخطر في عواصم العالم ومدنه. والإغراء هو الغوص في أعمال البلد نفسه. فهل حكومته حكومة حكيمة أم سلطة مجنونة فاسدة؟ وهل شعبه سعيد بتقدمه أم إنه مسحوق كمواطن ومُسْتَعْلٌ كعامل؟ وهل تكسب الصين مزيداً من بريق أم تغرق في أحوال

الصناعة؟ وهل تنهار مصارفها أم تتجح وتصبح لاعباً بما تستأهله بين لاعبي العالم؟ وهل يشق فلاحو الصين طريقهم بسهولة نسبية إلى مستقبل بلدهم المدني أم يثورون؟

هذه أسئلة تطرح نفسها، وليس ثمّة شك في أن الشعب الصيني يستحق قلق حكومته والعالم واحترامهما. وأما أربعة أخماس سكان العالم الذين لا يعيشون في المملكة الوسطى، فإن ثمّة حقيقة هي أن الآلة الصينية مهما أنتجت فإنها تنتج للصينيين أنفسهم، وإن أثر البلد على الكرة الأرضية سيتجلى حتماً على حياة العالم برغم كل شيء. فليست الصين بحاجة إلى ازدهار لحدود له لكي تمد العالم بمصانع منافسة. وليس جميع سكانها، ولا معظمهم ولا ثلثهم ولا خمسهم، في حاجة إلى بلوغ الطبقة الوسطى في العالم لتطارد أسواقها - وإنما يكفي 50 مليون أسرة.

وليسست الصين مضطرة لمجاراة أمريكا، أو أوروبا، أو اليابان في التزامها بالتعليم العالمي أو في تأمين فرص لجميع تلاميذها المبدعين لمتابعة دراستهم في الجامعات؛ إذ تستطيع الصين أن تنتج عدداً هائلاً من المديرين، والمهندسين، والعلماء من المستوى العالمي بنظامها التعليمي القائم الذي يبعد كثيراً عن أن يكون شاملاً. وإن لم تستطع قيادة الصين أن تروّض نفسها مع دقّ المعلومات الحر الذي يريعه النظام الرأسمالي، أو مع القوة المتصاعدة لطبقتها التجارية التي تزداد قوة، فإن شركات العالم التي تشق طريقها نحو بابها لن تتحول عنها، ولن تهجر مصانعها. وقد أظهرت أن الحزب الشيوعي الصيني يناسبها تماماً.

وباستثناء انبعاث ماو Mao، أو خوض حرب يُفجّرُها يأسُ كورية الشمالية، أو تعالي تايوان، أو ضريبة أمريكية تفرض على كل ما ترسله الصين إليها، يصعب أن نرى الصين تنكمش عائدة إلى موقعها على خارطة العالم القديمة. وقد أشار توم سالر Tom Saler، الصحفي المتخصص بالشؤون المالية في صحيفة ميلووكي جورنال سينتيل Milwaukee Journal Sentinel إلى أن

إحدى وعشرين فترة ركود، وكساد اقتصادي، وصدمتين في سوق الأوراق المالية، و حربين عالميتين لم تستطع أن توقف نمو الاقتصاد الأمريكي خلال القرن الماضي من 118 بليون دولار (367 بليون دولار في سنة 2000م) إلى أكثر من 10 تريليون دولار. ويعني هذا، بالقيمة الثابتة للدولار، زيادة مقدارها سبع وعشرون ضعفاً. ويبدو لنا من جميع الظواهر أن الصين ستحقق نمواً مماثلاً في هذا القرن الجديد. وحتى إن لم يلحق الشعب الصيني، وسطياً، شعوب دول العالم الغنية، وإن استمرت منافسة الصين الرئيسة لكي تكون التكنولوجية الأفضل، فستبقى الصين دائماً منافساً مرعباً.

وليس ثمة شك في أنه إن كان لبلد أن يحلَّ محل الولايات المتحدة في السوق العالمية فإنه الصين. وينصح جيفري ساكس Jeffrey Sachs اقتصادي في جامعة كولومبيا Columbia University ومستشار دُول، ينصح الأمريكيين بالاستعداد لعالم يكون اقتصاد الصين فيه في سنة 2050م أكبر من اقتصادهم بأكثر من 75 بالمئة.

غير أن التسليم بنهضة الصين لا يعني الاستسلام للصين. وإنما يعني الاعتراف بحقيقة جديدة بالملاحظة تواجهنا جميعاً. فإن قلّة من الأمريكيين العاملين يدركون إدراكاً كافياً حقيقة نهضة الصين. وأنتى لهم أن يفعلوا؟ فذلك شيء لم يحصل من قبل، ويجري الآن على الجانب الآخر من الكرة الأرضية. وإنما في حاجة لأن نعرف الذي يجري اليوم في الصين - عاملاً فاعل، ومصنعاً فمصنع - ولماذا سيؤثر ذلك في الجميع؟.

وهذا، في مجمله، هو موضوع هذا الكتاب.

